

المقياس: محاضرات في اللسانيات

التطبيقية .

السنة الثانية دراسات نقدية.

الموسم الدراسي: 2021م/2022م.

الأستاذة: عبابة فاطمة.

المحاضرة الخامسة : نظريات التعلم

1) النظرية السلوكية:

إنّ التعلّم عملية اكتساب معرفة ومهارات وردود أفعال تجاه مواقف، وكلّها تؤدي إلى تغيير في أداء الإنسان، وتعمل على التعديل في سلوكه عن طريق التمرين والخبرة، ويمكن أن نقول عنها بأنّها العملية العقلية المسؤولة عن النمو العقلي المطرد للشخص، وتحسينه المستمر، بحيث تمكنه التكيف مع بيئته وإبداع حلول للمستجدات. لذا حاول علماء النفس تفسير عملية التعلّم من خلال نظرياتهم المعروفة بنظريات التعلّم. ومن هذه النظريات: النظرية السلوكية.

أولاً / النظرية السلوكية لواطسون:

أ- تعريف السلوكية:

النظرية السلوكية أو المذهب السلوكي (behaviourisme) هي تيار معرفي، ومدرسة نفسية من مدارس علم النفس التجريبي تقوم على فكرة جوهرية تتمثل في أنّ علم النفس لا يمكنه الارتقاء إلى مستوى العلم الحقيقي إلا إذا تبنّى المنهج المعتمد في العلوم الطبيعية، ولا يمكن اعتماد هذا المنهج إلا إذا كان موضوعه قابلاً للملاحظة و التجريب.

تأسست المدرسة السلوكية في أمريكا في مطلع القرن العشرين، وقد ظهرت هذه النزعة في الثقافة الإنسانية الحديثة ابتداءً من سنة 1924 على يد العالم جون واطسون (john watson)، الذي عرّف السلوكية ب: أنّها العلم الطبيعي الذي يدرس كلّ السلوك والتكيف البشري. وقد كان مناصراً للعالم ثورانديك الذي تأثرت السلوكية بأعماله، وكانت المدرسة السلوكية تأخذ من دراساته ومن دراسات غيره من علماء النفس التجريبي ما يخدم اتجاهاتها، كما كانت تستعين بالكثير من تجاربهم، وتوغلت السلوكية آنذاك في كلّ الميادين العلمية حتّى أوشت أن تكون المنهج الفريد المعوّل عليه في تقصّي مظاهر النشاط الإنساني، فلا عجب إذن أن نجدها تقترح الميدان اللساني، فتضفي عليه طابعها الخاص.

ب- مبادئها:

نادت النظرية السلوكية بوجود التخلّي في دراسة السلوك عن الاهتمام بشعور الإنسان وما يجري في داخل نفسه وعقله، ولا يعني ذلك أنّ السلوكيين ينكرون وجود الوعي والشعور، لكنهم

يرفضون اعتباره موضوعاً للدراسة، لأنه داخليّ، لا يخضع للملاحظة والقياس ومن ثمة ينتقدون الاتجاهات التي تفسّر سلوك الكائن الحيّ بإرجاعه إلى دوافع و حاجات داخلية. وحجّتهم في ذلك أنّ الشيء الموضوعي الذي يمكن ملاحظته ودراسته وقياسه إنّما هو السلوك والتّصرف الموضوعي. ذلك السلوك الذي يمكن إخضاعه للملاحظة مثلما يجري في حينه، ويمكن قياسه من حيث الزمن الذي يستغرق أدائه. وتحليله إلى أجزاء متعدّدة، وتعديله أو تغييره، وضبط الشّروط التي تؤدّي إلى ظهوره، ومن ثمة التّحكم في هذا الظهور نفسه، من خلال تفسير شروطه. أمّا ما يجري داخل نفس الإنسان وما يشعر به فأمر شخصي بحت لا يخضع للملاحظة العلمية ، ولا ينطبق عليه قياس .

وقد بدأ السلوكيون بدراسة السلوك الحيواني، وذلك لإيمانهم بأنّ الفرق بين الإنسان والحيوان هو فرق في الدرجة، لا فرق في النّوع. وتبيّن للسلوكيين من دراستهم أنّ السلوك يتلخّص في المبدأ المعروف: مثير - استجابة . أي أنّ السلوك إنّما يكون استجابة لمثير أو منبه يقع على مناطق إحساس الكائن الحي، ثمّ ينتقل إلى الأطراف العصبية للمخ، وينتهي الأمر باستجابة معينة.

ج- مرجعيّتها المعرفية والفلسفية:

استوتحت النّظرية السلوكية أسسها ومبادئها المنهجية والفكرية من :

1/ الفلسفة الوضعية (positivisme) :

هي مذهب فلسفي يعنى بالظواهر اليقينية، ويرفض كلّ تفكير تجريدي في الأسباب المطلقة، أي أنّ هذه الفلسفة لا تسلّم إلا بما هو مرئي تجريبي، وتنفي صفة العلمية عمّا سوى ذلك.

2/ التجريبيّة (empiricism) :

هي اتجاه شاع في دراسة العلوم الطبيعية، ويعتبر أنّ كلّ معرفة حتّى تكون عملية يجب أن تخضع إلى إجراءات المنهج العلمي، وعلى رأس هذه الإجراءات التّجربة.

3/ البراجماتية (النفعية) (pragmatisme):

هي مبدأ من المبادئ التي تشبعت به الثقافة الأنجلوسكسونية وأثر في فكر وسلوك الأمريكيين.

د- اتجاهاتها

1- نظرية التعلّم بالفعل المنعكس الشرطي لبافلوف:

تنسب هذه النظرية إلى العالم الفيزيولوجي إيفان بافلوف (ivan pavlov) (1849-1936)، وعرف بافلوف بعطائه الوافر في مجال حقل العلوم الطبيّة والدراسات الفيزيولوجية منذ سنة 1890.

ازدادت شهرته بخاصة حين اقترن اسمه بالمخبر الفيزيولوجي لمعهد الطب التجريبي في لينينغراد الذي كان يديره إلى آخر حياته، والذي عكف فيه لمدة 12 سنة لدراسة الغدد الهضمية للكلاب، ونظام أعصابها وانعكاساتها، وتوجت أبحاثه بحصوله على جائزة نوبل عام 1904.

وعندما كان بافلوف منشغلا بدراسة عملية الهضم عند الكلاب الجائعة لغرض علمي بحث، انتبه إلى ظاهرة تابعة أثارت اهتمامه وهي لعاب الكلاب عند رؤيتها الطعام، أو رؤيتها للشخص الذي يطعمها عادة، وقد يسيل اللعاب أحيانا بمجرد سماع حركة ذلك الشخص الذي يطعمها عادة عن بعد، حتّى وإن كان غائبا عن الحسّ البصري.

اهتمّ بافلوف منذ الانتباه إلى هذه الظاهرة، بتركيز الملاحظة الواعية و الحضور المستمر لرصد هذه الظاهرة، ومحاولة ضبط مجالها الإجرائي، وذلك بتعميقها أكثر عن طريق التعديل الموجّه، وكان ذلك بالعمل الآتي:

- أجرى بافلوف عملية جراحية لكلب، حاول من خلالها أن يوصل الغدد اللعابية للكلب بأنبوب زجاجي، لضبط كمية اللعاب التي تظهر في الأنبوب في قطرات متوالية، وكان ذلك بعد تثبيت جسم الكلب حتّى لا يتحرّك كثيرا.

- ثمّ قام بتقديم الطعام للكلب كالعادة، ولكن هذه المرّة بمثير مصاحب خارج عن الطعام نفسه، ولم يكن الكلب قد ألفه من قبل، وهذا المثير الجديد هو قرع الجرس أثناء تقديم الطعام. لم يستجب الكلب في البداية لهذا المثير الجديد ولكنّه بعد تكرار التجربة من 20 إلى 40 مرّة، أصبح هذا

المثير قادرا على إحداث الاستجابة المتمثلة في سيلان اللعاب، حتى وإن كان غير مقترن بإحضار الطعام. ويفسر بافلوف عملية التعلّم تفسيراً فسيولوجياً على أساس تكوين ارتباطات عصبية دقيقة بين الأذن والطعام فالعملية تبدأ بإثارة الحواس ثم تنتقل بواسطة الألياف العصبية إلى المراكز العصبية، وتنتهي بالتقلص وإفراز الغدد. وهو يفسر هذا بحدوث تغييرات فسيولوجية طرأت ساعة حدوث التوفيق على مخ الحيوان أو الإنسان.

سمّى بافلوف الجرس في هذه الحالة بالمثير الشرطي، والطعام بالمثير الطبيعي أو المثير غير الشرطي، وسمّى سيلان اللعاب بالفعل المنعكس الشرطي (الاستجابة)، وهو اقتران حدوث المثير الأصلي بمثير آخر عن طريق التجربة المتكررة عدّة مرات، فيكتسب المثير الجديد صفة المثير الأصلي وينوب عنه في إحداث الاستجابة، وهذا النوع من الاكتساب أبسط أنواع التعلّم عند الكائن الحي.

ففي الواقع أنّ الأسس التي قامت عليها عملية تعلّم معنى اللفظ، قد ظهرت في نظرية التعلّم بالمنعكس الشرطي من حيث الاقتران التكراري بين مثيرين لصدور استجابة ما. وقد أوضح أوسغود (osgod) عام 1953، حدوث مثل هذه العملية في التعلّم اللغوي، وهي: أنّ معنى اللفظ ينشأ من عملية اقتران بين اللفظ والمثير الشبّي (المثير الطبيعي) الدال على هذا اللفظ. بمعنى أنّ المثيرات اللفظية (أصوات كلامية) تقترن مع مثيرات شبّية اقترانا منظماً متكرّراً، مثال ذلك: حينما تقول الأم لطفلها كلمة (كرة) مرات عديدة في اللحظة التي يتطلّع فيها إلى المثير الشبّي نفسه وهو الكرة، أو تقول له كلمة (قطّة) في حضور القطّة أمام عيني الطفل. ففي هذين المثالين يوجد اقتران منتظم ومتكرّر بين مثيرين، مثير لفظي وهو اللفظ (كرة) أو (قطّة)، ومثير شبّي وهو الكرة كشيء أو القطّة كحيوان، فالمثير الأوّل مثير شرطي، والثاني مثير طبيعي، والاستجابة الشرطية تتمثل في دلالة اللفظ المكتسب، بحيث كلّما يلفظ لفظ كرة أو قطّة يستجيب له ويفهمه دون إحضار الكرة كشيء أو إحضار القطّة.

ويدلّنا المثال التالي لما يمكن أن يحدث أثناء هذا الاقتران المنتظم، كما تفسرها أسس الإشراف الكلاسيكي. حينما يسمع الطفل مثيراً معيّناً، وليكن كلمة (لا) وذلك في اللحظة التي يرد فيها حدوث استجابة معيّنة مثل (سحب اليد)، فالمثير السّمعي (لا) يعتبر مثيراً شرطياً بالنسبة لليد المسحوبة. وتتكرّر حدوث هذه العملية عدّة مرّات، حيث يسمع الطفل أولاً كلمة (لا) تعقبها مباشرة (الضربة على اليد) وسحب اليد، وذلك بعد اقتران كلمة (لا) عدداً من المرّات مع الضربة على

اليد، وفي هذه الحالة، تنشأ علاقة إشرافية بين المثير الشرطي (لا) والاستجابة الشرطية (سحب اليد)، وهكذا ينشأ ويتكوّن المنعكس الشرطي.

3- نظرية التعلّم بالإشراف الإجرائي لسكينر:

إنّ التعلّم في منظور النظرية السلوكية عملية ناجمة عن التفاعل بين الكائن الحي والمحيط، فالمحيط يتضمّن العديد من المثيرات التي تتطلب من الكائن الحي استجابات معيّنة، ويمكن أن يتكرّر حدوث هذه الاستجابات إذا لقيت تدعيماً خارجياً، وفي هذا الإطار تندرج نظرية سكينر (skinner). فالمحيط يمثل في نظريته مكانة بارزة، ولكنّه يؤكّد في الوقت نفسه على أهمية العوامل الوراثية التي تتوفّر في الكائن الحي منذ ولادته.

والتعلّم في نظر سكينر تغيّر في احتمال حدوث الاستجابة، ويتمّ هذا التغيّر بواسطة الاشتراط الإجرائي. فالاشتراط الإجرائي هو عملية التعلّم التي تصبح فيها الاستجابة أكثر احتمالاً للحدوث والتكرار. وعلى هذا يعتبر سكينر أنّ جميع أنواع السلوك الإنساني تقريباً نتاجاً للتعزيز الاشتراطي، بمعنى أنّ السلوك الإنساني ما هو إلاّ إجراء يعتمد على البيئة، بحيث يؤدي إلى نتائج وقوانين محدّدة تصف سلوك الكائن الحي.

إنّ أقلّ الناس إماماً بنظرية الإشراف الإجرائي عند سكينر، يدرك بلا ريب أنّه كان منذ البدء يميّز بين نوعين مختلفين من التعلّم يتعلّقان بنوعين مختلفين من السلوك أيضاً وهما:

أ/ السلوك الاستجابي:

وهو سلوك ناتج عن مثيرات محدّدة تحديداً دقيقاً، وترتبط به ارتباطاً شديداً، فعندما يحدث المثير فإنّ الاستجابة تحدث بكيفية آلية، وهذا السلوك هو انعكاس طبيعي لمجموعة من المثيرات، وهو فطري في شموليته. وقد تكتسب بعض الانعكاسات عن طريق عملية الإشراف.

ب- السلوك الإجرائي:

يتميّز هذا النوع من السلوك عن النوع الأوّل برّد فعل آلي لمثير ما، بل إنّّه يتجاوز ذلك من حيث أنّه يقوم بإجراء واسع في المحيط الطبيعي والاجتماعي، ويحقق إنجازاً يغيّر عالم الخبرة الحسيّة، مثل الكلام واللّعب والعمل، ومعظم السلوك الإنساني من هذا النوع. ويرى سكينر أنّ العوامل التي تسهم في اكتمال نظام الإشراف الإجرائي متعدّدة، ولكن أكثرها فاعلية هو المكافأة أو

التعزيز الذي يتبدى أثره في ترقية بعض المثيرات وتطويرها، أو إلغاء بعضها الآخر، وإزالته من ميدان الخبرة وينعت التعزيز في الحالة الأولى بالتعزيز الإيجابي مثل مكافأة الجائع بإحضار الطعام بعد إجراء الاستجابة المطلوبة، وينعت التعزيز في الحالة الثانية بالتعزيز السلبي ، مثال إلغاء الصدمة الكهربائية التي تعترض سبيل الحيوان وينتج التعزيز السلبي عن إلغاء المثير السلبي وإزالته من واقع التجربة. ومن هنا فإن التعزيز، هو حدث من أحداث المثير إذا ظهر في علاقة زمنية ملائمة مع الاستجابة فإنه يميل إلى المحافظة على قوة الاستجابة ، أو زيادة هذه القوة، أو قوة العلاقة بين المثير والاستجابة ، أو العلاقة بين مثير ومثير. يستنتج من هذا أن التعزيز لا يعدو أن يكون صورة من صور تقوية الاستجابة، و استدعائها بواسطة المكافأة أو الجزاء، سواء أكان ذلك الجزاء ماديا أم معنويا، كإشباع الحاجة أو تحقيق الرغبة أو تمكين المتعلم من الوصول إلى أهدافه التعليمية عن طريق هذا الجزاء أو هذه المكافأة.

ترجع نظرية سكينر في السلوك الكلامي إلى نظريته العامة. فإذا قال الطفل: " (أريد ماءً)، ويقدم له الماء، فإن هذا السلوك يتعزز ويصير إشرافياً بالتكرار. ويرى سكينر بأن السلوك اللغوي مثل أي سلوك آخر، يمكن التحكم في نتائجه، فهو يتعزز حين تكون النتيجة مكافأة، وينطفئ إذا كانت النتيجة عقاباً. وبعبارة أخرى، فإن احتمال وقوع السلوك الإجرائي مرتبط بما يسميه سكينر بالإشراط الفعال أو الإجرائي. وكلما عزز السلوك الإجرائي كلما صارت احتمالات وقوعه مستقبلاً كبيرة. من هذا المنطلق يرى سكينر أن السلوك اللغوي المكتسب هو نتيجة تفاعل ثلاثة عناصر:

. تنبيه . استجابة . تثبيت.

ومن هنا نصل إلى أن اللغة تكتسب في إطار النظرية السلوكية بالطريقة نفسها التي تكتسب بها بقية الاستجابات الأخرى غير اللغة، وذلك بالمثيرات، والمحاكاة، والتكرار، والإشراط، والتعزيز،... حيث يقوم الطفل بتحويل الأصوات اللغوية التي يصدرها أثناء المناغاة إلى الشكل الذي هو عليه أصوات اللغة، وذلك عن طريق تعزيزها باتجاه الأصوات اللغوية عند الكبار. فالاستجابات اللفظية تتولد عبر الأثير أو الحافز الفيزيائي، و تتعزز خلال محاولة الطفل التلطف بها. ويتلقى التعزيزات الإيجابية في حال قيامه بالاستجابة الكلامية الصحيحة. وتتقدم عملية اكتساب اللغة بقدر ما تتوفر الاستجابات الصحيحة و تتعزز. وتنبثق الكلمات من هذه العادات اللفظية وعن طريق التعزيز دوماً حيث يحاول الطفل التفاعل مع المحيطين به عن طريق التلطف

بها، ممّا يجعلهم يتجاوبون معه ويحقّقون رغباته، فاللغة سلوك؛ حيث تُتعلّم عن طريق الاستجابة لتعزيزات تُقدّم له من المحيطين به.

رابعا/ نقد النظرية السلوكية:

وعلى الرّغم من هذه التّفسيّرات لعملية اكتساب اللّغة في إطار الفكر السلوكي، فإنّ النظرية اللّسانية السلوكية تبقى عاجزة عن شرح العديد من جوانب اللّغة العملية، فعلم النّفس السلوكي يبدأ في فهم معجزة اكتساب اللّغة بتأكيده على المنهج العلمي وعلى الملاحظة التّجريبية، ولكّنه لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من ذلك. ولهذا قوبلت النظرية السلوكية بالكثير من الانتقادات الموضوعية المؤسّسة، خصوصا تلك التي قدّمها تشومسكي، الذي رأى بأنّها قائمة على اعتقادات أوليّة، وفي هذا الصّد يقول: "ويبدو لي بصورة خاصة أنّ الفرضيات التّجريبية التي سيطرت على دراسة اكتساب المعرفة طيلة سنين عديدة، قد تبنّاها البعض دون تبرير، وأنّه لا مكانة لها ضمن الإمكانيات المتعدّدة التي يمكن تصوّرها فيما يتعلّق بكيفية عمل الفكر". وبهذا اعتبرت النظرية السلوكية عاجزة عن تفسير عملية اكتساب مفردات اللّغة وجملها على حدّ سواء. ففيما يتعلّق بالمفردات، يمكننا إيجاز أهم المآخذ الموجّهة إلى عملية اكتسابها في:

- إنّ عملية الفهم تسبق عملية التّفكير، أي أنّ الطّفّل يفهم معنى الكثير من المفردات قبل أن يتلفّظ بها، ممّا يؤكّد أنّه اكتسب هذه المفردات أو العبارات فهما دون تدعيم، وهذا لا يعني أنّ التّدعيم لا قيمة له في تعلّم اللّغة.

- كثيرا ما يكون تقليد الطّفّل للكبار غير مطابق لما يسمعه، ومع هذا يهمل الكبار له، وقد يأخذون حتّى في استعمال المفردة التي يستعملها هو، ورغم هذا فإنّه يتخلّى تدريجيا عن اللفظة المدعّمة التي سمعها واستعملها طويلا، ويتحوّل إلى استعمال لفظ الكبار .

- إنّ المفردات التي يمكن للطفّل أن يتعلّمها عن طريق الربط بين الدال والمدلول، هي المفردات الدالة على الأشياء المحسوسة، فكيف يمكن في ضوء هذه النظرية، تفسير تعلّم الطّفّل للعديد من المفردات ذات المعاني المجردة.

- يسمع الطّفّل مفردات كثيرة، خاصة الوظيفيّة منها ك (الذي) أو (إذا) دون أن يتعلّمها، لعدم إدراكه المفاهيم التي تعبّر عنها ، وهو أمر لا تفسير له في إطار هذه النظرية. من هنا، يمكن القول أنّ التّفسير السلوكي للدلالة اللّسانية قد يكون ناجعا إلى حدّ ما في تفسير بعض الكلمات

ذات الإحالات المحسوسة، التي يمكن أن تعان في الواقع اللغوي بناء على مظاهرها الفيزيائية المميزة. لكن على الرغم من ذلك سيظل هذا التحليل محدوداً، بحيث لا ينطبق على الجانب الأعظم من الكلمات اللغوية. إذن حاول أنصار هذه المدرسة تفسير هذه الظواهر على ضوء آلياتهم و لكنهم كانوا مخفقين، و إنهم أيضا حينما يفسرون عملية التعلّم على ضوء آلي يكونون مخفقين كلّ الإخفاق. ومع كل ما يمكن أن يقال عن النظرية السلوكية في عمومها، فإنها لقيت نقوداً لاذعةً من قبل اللغويين الذين أنكروا على هؤلاء العلماء التفسيرين عدم استطاعتهم الوصول إلى النقطة المرّكز؛ وهي فطرية اللغة في الكائن الإنساني ، الذي يختلف عن الحيوان المالك للغريزة فقط، فغياب فكرة الإبداعية لدى الحيوان جعل سلوكه هوّ هوّ لا يتغيّر، فمالك الحزين يغادر الأماكن الباردة إلى المناطق الحارة عندما يشعر بالبرد، ولا يحاول إيجاد جوّ يناسب ذلك التغيّر، ويأتي للبلاد الحارة فيقيم عشّه من القشّ الذي يجمعه، وهذا السلوك لم يتغيّر منذ مالك الحزين الأول، وقسّ على ذلك الأسماك، وحتى قرّدة الشامبانزي التي يعمل فيها التكرار فعل التغيّر المبني على تعزيزات مؤقتة. فغياب الرّبط الزمّني بين الماضي و الحاضر، وبين الأحداث لا يوجد إلاّ في الإنسان، و تأتي له ذلك بفضل اللغة. ومن هنا لم يكن السلوكيون موضوعيين في أعمالهم، فاللغة في الكائن البشري ليست سلوكاً، و انتقد اللغويون بقوة المهندس الأول لهذه الأفكار، ومن تبعه في تبنيها، على أساس أنه تبنّ للأخطاء، ورأوا بأنه لا يمكن أن يفتنعوا بالعمل في اللامحسوس والأشياء الغامضة.